«والله يحكم لا معقب لحكمه»

سبحانك ربى ما أجل حكمتك وما أعظم شأنك. لو أننا سلكنا فى الحياة سبلك واتبعنا أمرك ونزلنا عند حكمك ما ضللنا ولا شقينا.

ربنا إنك قد أكرمت نبيك وجعلته أقرب الناس إليك وأحبهم لديك، وأعزَّهم عليك. فقرنت اسمه باسمك وفرضت علينا ذكره إلى جانب ذكرك، وعصمته من كل كبيرة وصغيرة، وحصنته من كل خطيئة ورذيلة.. أدَّبته بأدبك وعلَّمته من بعض علمك، وأوحيت إليه ما أوحيت، وبعثته للعالمين رحمة بما ارتضيت، وأوصيته بالشورى مع عبادك، فأدَّى رسالته على أحسن ما يكون الأداء، وما نطق عن الهوى، وما ضلَّ وما غوى. محمد صلى الله عليه وسلم فى كل وقت وزمان وأنت جل جلالك فى سموك وعليائك لم تأخذنا نحن عبادك بالشدة، بل فرضت علينا عبادتك بالمنطق والحجة وفتحت لنا أبواب عفوك، وشملتنا بواسع حكمك.

وهذا نبيك الكريم ورسولك الأمين، لم يأمر الناس بغير ما أمرت ولم يقض بينهم بغير ما شرعت وسننت، لكنك كنت دائمًا وحدك من إذا حكمت فلا معقب لحكمك.

ولقد رأيت من لطفك بعبادك أن تتدخل يومًا فتعقب على حكم قد حكمه وقضاء قد أصدره.

سجلت ذلك فى كتابك الكريم.. وكنت أنت دائمًا ولازلت السميع العليم.

وها هى سورة المجادلة بين يدى بدأتها ربى بقولك وأنت أصدق القائلين:

«قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله، والله يسمع تحاوركما. إن الله سميع بصير» (المجادلة : 1).

ويحدثنا المفسرون من السلف الصالح والعلماء الأبرار أنَّ لنزول هذه الآية الشريفة وما تلاها قصة:

ذلك أنَّ خولة بنت ثعلبة وقيل بنت حكيم ذهبت يومًا إلى رسول الله تشكو زوجها أوس بن الصامت، ولقد سمعتها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم «يا رسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى، حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى، اللهم إنى أشكو إليك..

فلما سمع المصطفى صلى الله عليه وسلم كلامها قضى بقوله «حرمت عليه» فقالت والله ما ذكر طلاقًا. ثم قالت أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ووحشتى وفراق زوجى وابن عمى، وقد نفضت له بطنى. فقال صلى الله عليه وسلم مرة أخرى «حرمت عليه» فما زالت تراجعه ويراجعها، والمصطفى صلى الله عليه وسلم عند حكمه لا يغير منه شيئًا، لأنَّ الظهار كان لا يزال من الطلاق.

وفيما هى فى دار رسول الله صلى الله عليه وسلم تحاوره ويحاورها والله يسمع لهما نزل الوحى الأمين يحمل إلى خير المرسلين حكم الله النهائى فى الظهار فيخرجه عن نطاق الطلاق فيجيز عودة الزوجين إلى المعاشرة على أن يعتق الزوج رقبة قبل أن يتماسا، فإن لم يستطع فصيام شهرين متتابعين فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا.

وهكذا يتبين للناس أنَّ الذى يحكم لا معقب لحكمه هو الله وحده لا شريك له وبهذا نؤمن وبغيره لا نؤمن.

ولعلَّ من الخير أن نروى حادثًا وقع لهذه السيدة العربية الجليلة الشأن التى أكرمها المولى جلَّ وعلا بالتدخل فى قضيتها فأنزل الوحى ليحمل التشريع الحاسم فى أمر الظهار.

مرَّ بها سيدنا عمر بن الخطاب يومًا فى خلافته فاستوقفته طويلًا والناس من حوله ووعظته بقولها:

«يا عمر.. قد كنت تدعى عميرا. قم قيل لك عمر. ثم قيل لك أمير المؤمنين.. فاتق الله يا عمر فإنَّه من أيقن بالموت خاف الفوت. ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، وظل عمر واقفًا يسمع كلامها فقيل له ممن حوله يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف، فقال والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره لازلت إلا للصلاة المكتوبة. أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات.. أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟

وفى هذا كله لنا عظات وعبر فهل من مذكر؟!